سورة يوسف عليه السلام

هى مكية ، وآياتها إحدى عشرة ومائة ، والمناسبة بينها و بين سورة هود أنها متممة لما فيها من قصص الرسل والاستدلال بذلك على كون القرآن وحياً من عند الله دالا على رسالة محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ، والفرق بين القصص فيها وفيما قبلها ، أن السابق كان قصص الرسل مع أقوامهم فى تبليغ الدعوة والمحاجة فيها وعاقبة من آمن منهم ومن كذبوهم لإنذار مشركى مكة ومن تبعهم من العرب .

وأما هذه السورة فهى قصة نبى ربى فى غير قومه قبل النبوة وهو صغير السن حتى بلغ أشده واكتهل فنبىء وأرسل ودعا إلى دينه ثم تولى إدارة الملك لقطر عظيم فأحسن الإدارة والسياسة فيه وكان خير قدوة للناس فى رسالته وفى جميع مادخل فيه من أطوار الحياة وتصريف أمورها على أحسن ما يصل إليه العقل البشرى ، ومن أعظم ذلك شأنه مع أبيه و إخوته آل بيت النبوة ، وكان من حكمة الله أن يجمعها فى سورة واحدة ، ومن ثم كانت أطول قصة فى القرآن الكريم .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣) .

المعنى الجملى

جاءت فاتحة هذه السورة كفاتحة سورة يونس ، خلا أن القرآن وصف هنا بالمبين وهناك بالحكيم ؛ ذلك أن موضوع الأولى قصص نبى تقلبت عليه صروف الزمان بين نحوس وسعود كان فى جميعها خير أسوة ، وموضوع الثانية أصول الدين من توحيد الله

و إثبات الوحى والرسالة والبعث والجزاء ، وهذه يناسبها الوصف بالحكمة .

وروى عن سعد بن أبى وقاص فى سبب نزولها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غبر يتلو القرآن زمانا على أصحابه فقالوا يارسول الله لو قصصت علينا فيكون فى ذلك ترويح لنفوسنا وإحاطة بما يتضمنه من عبر وعظات .

الايضاح

(الر) تقدم الكلام فى هذا بما فيه الكفاية .

(تلك آيات الكتاب المبين) أى آيات هذه السورة هى آيات الكتاب البين الظاهر بنفسه ، والمُظْهِر لما شاء الله من حقائق الدين وأحكام التشريع وخفايا الملك والملكوت وأسرار النشأتين والمرشد إلى مصالح الدنيا وسبيل الوصول إلى سعادة الآخرة

(إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) أى إنا أنزلنا هذا الكتاب على النبى العربى ، ليبين لكم بلغتكم العربية مالم تكونوا تعلمونه من أحكام الدين وأنباء الرسل والحكمة وشئون الاجتماع وأصول العمران وأدب السياسة ، لتعقلوا معانيه وتفهموا ماترشد إليه من مطالب الرُّوح ومدارك العقل وتزكية النفس و إصلاح حال الجماعات والأفراد بما فيه سعادتهم فى دنياهم وآخرتهم .

(نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن و إن كنت من قبله لمن الغافلين) أى نحن نقص عليك ونحدثك أحسن مايُقَصُّ ويتحدث عنه موضوعا وفائدة ، لما يتضمنه من العبر والحكم ، بإيحائنا إليك هذه السورة من القرآن الكريم ، إذ هى الغاية فى بلاغتها وتأثيرها فى النفس وحسن موضوعها ، وقد كنت من قبل ذلك فى زمرة الغافلين عنه من قومك الأميين الذين لايخْطُر فى بالهم التحديث بأخبار الأنبياء وأقوامهم و بيان ما كانوا عليه من دين وشرع كيعقوب وأولاده وهم فى بداوتهم ولاما كان فيه المصريون الذين جاء يوسف إليهم من حضارة وترف ،

ولاماحدث له فى بعض بيوتات الطبقة الراقية ، ولاحاله فى سياسة الملك و إدارة شئون الدولة وحسن تنظيمها .

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤) قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٥) وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ، وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ ، كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦)

تفسير المفردات

لأبيه : هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، روى أحمد والبخارى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: « الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب ابن إسحق بن إبراهيم ». أحد عشر كوكبا : هم إخوته وكانوا أحد عشر نفرا ، والشمس والقمر : أبوه وأمه ، والسجود : من سجد البعير ، إذا خفض رأسه لراكبه حين ركوبه ، وكان من عادة الناس فى تحية التعظيم بفلسطين ومصر وغيرها الانحناء مبالغة فى الخضوع والتعظيم ، وقد استعمله القرآن فى انقياد كل المخلوقات لإرادة الله وتسخيره ، ولا يكون السجود عبادة إلا بالقصد والنية للتقرب إلى من يعتقد أن له عليه سلطانا غيبيا فوق سلطان الأسباب المعهودة ، وقص الرؤيا : الإخبار بها على وجه الدقة والإحاطة ، وكاد له إذا دبر الكيد لأجله لمضرته أو لمنفعته كما قال « كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ » . والاجتباء من جبيت الشىء : إذا حصلته لنفسك والتأويل : الإخبار بما يئول إليه الشىء فى الوجود ، وسميت الرؤيا أحاديث باعتبار حكايتها والتحديث بها ، والآل أصلها

أهل ، وهو خاص بمن لهم شرف وخطر فى الناس كآل النبى صلى الله عليه وسلم وآل الملك .

المعنى الجملى

هذه الآيات الثلاث فى قَصِّ يوسف رؤياه على أبيه وهو صغير ، وفيما أجابه به أبوه من منعه عن قصه لإخوته خِيفة الحسد والكيد له ، وفى تعبير تلك الرؤيا له ، وما فيها من البشارة وحسن العاقبة وأنه سيكون له شأن عند الله وعند الناس ، وقد شُغِف أبوه بحبه وتعلّق به أمله وكان ذلك بدءا لما جَدَّله من أحداث ضر و بؤس ، ثم عاقبة حميدة كانت ذكرى للذاكرين وعبرة للمتقين ، ولم يذكر ذلك إلا فى أواخر السورة ، وقد احتذى هذا الأسلوب كثير ممن وضعوا كتب القصص (الروايات) فتراهم يبدءون بذكر نبأ هامٍّ يشغل بال القارىء و يحيره فى فهم علله وأسبابه و مايزالون يتدرجون به من حال إلى حال ومن شرح معمًّى وكشف خفيٍّ رويدا رويدا بأناة وحذق حتى يشرحوا ذلك النبأ فى نهاية القصص

الايضاح

(إذ قال يوسف لأبيه ياأبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين) أى قال يوسف لأبيه يعقوب إنى رأيت فى منامى أحد عشر كوكبا والشمس والقمر لى سُجَّداً . وقد علم أبوه أن هذه رؤيا إلهام ، لاأضغاث أحلام ، تثيرها فى النوم الهواجس والأفكار ، وأن يوسف سيكون له شأن عظيم وسلطان يسود به أهله حتى أباه وأمه وإخوته ، وخاف أن يسمع إخوته ماسمعه و يفهموا مافهمه ، فيحسدوه ويكيدوا لإهلاكه ، ومن ثم نهاه أن يقص عليهم رؤياه كما دل على ذلك قوله :

(قال يابنىَّ لاتقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا) أى لاتخبر

إخوتك بما رأيت فى منامك خيفة أن يحسدوك فيحتالوا للإيقاع بك بتدبير يُحكِّمونه بالتفكير والرؤية .

ثم بين السبب النفسى لهذا الكيد بقوله :

(إن الشيطان للإنسان عدو مبين) أى إن الشيطان عدو لآدم و بنيه ، قد أظهر لهم عداوته فاحذر أن يغرى إخوتك بك بحسدهم لك إن أنت قصصت عليهم رؤياك ، إذ من دأبه أن ينْزِغ بين الناس حين تعرض لهم داعية من هوى النفس ولاسيما الحسد الغريزى فى فطرة البشر ، وقد أرشد إلى هذا يوسف بقوله « مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي » .

(وكذلك يجتبيك ربك) أى وكما أراك ربك الكواكب والشمس والقمر سجّدا لك ، يجتبيك لنفسه و يصطفيك على آلك وغيرهم بفيض إلهى يكملك به بأنواع من المكرمات بلا سعى منك فتكون من المخلصين من عباده .

(و يعلمك من تأويل الأحاديث) أى و يعلمك من علمه اللدنى تأويل الرؤيا وتعبيرها أى تفسيرها بالعبارة والإخبار بما تئول إليه فى الوجود كما حكى الله قول يوسف لأبيه « هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا » .

وتعليم الله تعالى يوسف التأويل : إعطاؤه إلهاما وكشفا لما يراد ، أو فراسة خاصة فيها ، أو علما أعم من ذلك كما يدل عليه قوله لصاحبى السجن « لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي » .

(ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب) أى ويتم نعمته عليك باجتبائه إياك واصطفائك بالنبوة والرسالة ، وعلى أبيك و إخوتك وذريتهم بإخراجهم من البدو وتبوئهم مقاما كريما فى مصر ثم فى تسلسل النبوة فى أسباطهم حيناً من الدهر .

(كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم و إسحاق) أى كما أتم النعمة من قبل هذا العهد على جدك وجد أبيك ، وقدم إبراهيم لأنه الأشرف منهما والعرب وغيرها تفعل ذلك وقد كانوا يقولون للنبى صلى الله عليه وسلم يابن عبد المطلب

وقد قال يعقوب ذلك لما كان يعلمه من وعد الله لإبراهيم باصطفاء آله وجعل النبوة والكتاب فى ذريته ، وما علمه من رؤيا يوسف وأنه الحلقة الأولى فى السلسلة النبوية التى ستكون من بعده من أبنائه .

(إن ربك عليم حكيم) أى إن ربك عليم بمن يصطفيه ومن هو أهل للفضل والنعمة فيسخّر له الأسباب التى تبلغ به الغاية إلى ما يريده له ، حكيم فى تدبيره فيفعل ما يشاء جريا على سنن علمه وحكمته .

وخلاصة ما تقدم — إن يعقوب عليه السلام فهم من هذه الرؤيا فهما جُمليًّا كل ما بشر به ابنه يوسف الرائى لها ، وأما كيد إخوته له إذا قصها عليهم فقد استنبطه من طبع البشر وعداوة الشيطان له ، ثم قفّى على ذلك ببشارته بما تدل عليه الرؤيا من اجتباء ربه ومن تأويل الأحاديث وهو الذى سيكون وسيلة بينه وبين الناس فى رفعة قدره وعلوّ مقامه وإتمام نعمته عليه بالنبوة والرسالة كما كان ذلك لأبويه من قبله .

لَقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ (٧) إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ، إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ (٨) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (٩) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (١٠)

المعنى الجملى

صدّر سبحانه هذا القصص بمقدمتين : أولاهما فى وصف القرآن وكونه تنزيلا من عند الله دالاً على رسالة من أُنزل عليه وكون النبى صلى الله عليه وسلم كان من قبله

غافلا عما جاء فيه لايدرى منه شيئا . ثانيتهما رؤيا يوسف وما فهمه منها أبوه فهما جمليًّا و بنى عليه تحذيره و إنذاره وما يستهدف له من كيد إخوته ثم تبشيره بحسن العاقبة ، ثم بنى على الأولى قوله بعد تمام القصة « ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ » و بنى على الثانية قوله لأبيه بعد دخولهم عليه وسجودهم له « يا أَبَتِ هَذا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا » .

الايضاح

(لقد كان فى يوسف و إخوته آيات للسائلين) أى لقد كان فى قصة يوسف و إخوته لأبيه عِبَرٌ أيما عبر دالة على قدرة الله وعظيم حكمته وتوفيق أقداره ولطفه بمن اصطفى من عباده ، وتربيته لهم ، للسائلين عنها الراغبين فى معرفة الحقائق والاعتبار بها ، فإنهم هم الذين يعقلون الآيات و يستفيدون منها .

تأمل: ترأن إخوة يوسف لو لم يحسدوه لما ألقَوْه فى غيابة الجب ، ولو لم يلقوه فيها لما وصل إلى عزيز مصر ، ولو لم يعتقد العزيز بصادق فراسته أمانَته وصدقَه لما أمَّنه على بيته ورزقه وأهله ، ولو لم تراوده امرأة العزيز عن نفسه و يستعصم منها لما ظهرت نزاهته ولو لم تفشل فى كيدها وكيد صويحباتها لما أُلقِى فى السجن ، ولو لم يُسْجَن ما عرفه ساقى ملك مصر وعرف صدقه فى تعبير الرؤيا و إرشاد ملِك مصر إليه فآمن به وجعله على خزائن الأرض ، ولو لم يتبوأ هذا المنْصِب ما أمكنه أن ينقذ أبويه و إخوته وأهله أجمعين من الجوع والمخْمَصة و يأتى بهم إلى مصر فيشاركوه فيما ناله من عز وبَذَخ ورخاء عيش ونعيم عظيم ، وما من مبدإ من هذه المبادىء إلا كان ظاهره شرا مستطيرا ، ثم انتهى إلى عاقبة كانت خيرا وفوزا مبينا .

فتلك ضروب من آيات الله فى القصة لمن يريد أن يسأل عن أحداثها الحسية الظاهرة وعلومها الباطنة كعلم يعقوب بتأويل رؤيا يوسف وعلمه بكذبهم فى دعوى أكل الذئب له ، ومن شمه لريح يوسف منذ فَصَلَتِ العير من أرض مصر ذاهبة إلى

أرض كنعان ، ومن رؤية برهان ربه ، ومن كيد الله له ليأخذ أخاه بشرع الملك ، ومن علمه بأن إلقاء قميصه على أبيه يعيده بصيرا بعد عمى بقى كثيرا من السنين .

(إذ قالوا ليوسف وأخوه أحبّ إلى أبينا منا ونحن عصبة) أى إن فى شأنهم لعبرة حين قالوا : ليوسف وأخوه شقيقه بنيامين أحب إلى أبينا منا فهو يفضّلهما علينا بمزيد محبة على صغرهما وقليل نفعهما ، ونحن رجال أشداء أقوياء نقوم بكل ما يحتاج إليه من أسباب الرزق والكفاية .

(إن أبانا لفى ضلال مبين) أى إن أبانا لقد أخطأ فى إيثاره يوسف وأخاه من أمه علينا بالمحبة ، وهو قد ضل طريق العدل والمساواة ضلالا بيّنا لايخفى على أحد ، فكيف يفضّل غلامين ضعيفين لايقومان له بخدمة نافعة على العصبة أولى القوة والكسب والحماية عن الذمار .

وفى الآية من العبرة وجوب عناية الوالدين بمداراة الأولاد وتربيتهم على المحبة واتقاء وقوع التحاسد والتباغض بينهم واجتناب تفضيل بعضهم على بعض بما يعده المفضول إهانة له ومحاباة لأخيه بالهوى .

(اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا) أى قال إخوة يوسف بعضهم لبعض : اقتلوا يوسف حتى لا يكون لأبيه أمل فى لقائه ، أو انبذوه فى أرض بعيدة عن العمران بحيث لايهتدى إلى العودة إلى أبيه إن هو سلم من الهلاك .

(يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين) أى يخل لكم وجه أبيكم من شغله بيوسف فيكن كل توجهه إليكم وكل إقباله عليكم ، بعد أن تخلو الديار ممن يشغله عنكم أو يشاركم فى عطفه وحبه وتكونوا من بعد قتله قوما صالحين تائبين إلى الله مصلحين لأعمالكم بما يكفّر إثمها مع عدم التصدى لمثلها ، وبذا يرضى عنكم أبوكم ويرضى عنكم ربكم .

(قال قائل منهم لاتقتلوا يوسف وألقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين) الجب : البئر غير المبنية بالحجارة ، وغيابته : ما يغيب عن رؤية البصر

من قعره ، والسيارة جماعة المسافرين الذين يسيرون فى الأرض من مكان إلى آخر للتجارة أو غيرها .

أى قال قائل منهم وهو روبين : لاتقتلوا يوسف وألقوه فى قعر البئر حيث يغيب خبره فيلتقطه بعض المسافرين ويأخذوه إلى حيث ساروا فى الأقطار البعيدة ، وبذا يتم لكم ما تريدون ، وهو إبعاده عن أبيه إن كنتم فاعلين ماهو المقصد لكم بالذات ، إذ لاشك أن قتله لايعنيكم لذاته ، فعلام تُسْخِطون خالقكم باقتراف جريمة القتل والغرض يتم بدونها ؛ وجاء فى سفر التكوين من التوراة أن روبين مكربهم إذ كان يريد إخراجه من الجب وإرجاعه إلى أبيه فإنهم وضعوه فى بئر لا ماء فيها ، فمرت بها سيارة من تجار العرب مسافرة إلى مصر ، فاقترح عليهم يهوذا إخراجه وبيعه لهم ، إذ لافائدة لهم من قتله وهو من لحمهم ودمهم ففعلوا .

قَالُوا يَا أَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٢) قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ ، وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٣) قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ (١٤)

تفسير المفردات

الناصح : المشفق المحب للخير ، والرَّتْع : الاتساع فى الملاذ ، والمراد باللعب لعب المسابقة والانتضال بالسهام ونحوها مما يُتَدَرَّبُ به لمقاتلة الأعداء وتعلم فنون الحرب ، والحزن : ألم النفس من فقد محبوب أو وقوع مكروه ، والخوف : ألم النفس من توقع مكروه قبل وقوعه ، والعصبة : الجماعة التى تُعْصَب بها الأمور ، وتُكْفَى بآرائها الخطوب وخاسرون : ضعفاء عاجزون . أو هالكون لاغناء عندهم ولا نفع .

المعنى الجملى

هذا بيان جىء به لبيان ما كادوا به أباهم بعد أن ائتمروا بيوسف ليرسله معهم ، وفيه إيماء إلى أنه كان يخافهم عليه ، ولولا ذلك ما قال لهم تلك المقالة التى أظهروا فيها أنهم فى غاية المحبة والشفقة له .

الإيضاح

(قالوا يا أبانا مالك لاتأمنا على يوسف وإنا له لناصحون) أى قالوا له : لم تخافنا عليه ونحن نحبه ونريد الخير به ونخلص النصح له ؟ وكانوا قد شعروا منه بهذا بعد ما كان من رؤيا يوسف ، وربما علموا بهذا منه .

(أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون) أى أرسله معنا غداة غد حين نخرج كعادتنا إلى المرعى فى الصحراء يشاركنا فى الرياضة والأنس والسرور وأكل الفواكه والبقول وغيرها مما يطيب ، وقد كان أكثر لعب أهل البادية السباق والصراع والرمى بالعصى والسهام إن وجدت ، وإنا لحافظوه من كل أذى يصيبه .

(قال إنى ليحزننى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون) أى قال مجيبا لهم : إنى ليحزننى ويقض على مضجعى أن تذهبوا به معكم إلى الصحراء خيفة أن يأكله الذئب وأنتم لاتشعرون به ، لاشتغالكم عن مراقبته وحفظه بلعبكم ، ولعله لو لم يذكر هذا لهم لما خطر ببالهم أن يقع ، ولكن شدة الحذر والاحتياط هو الذى جعله يقول ذلك .

(قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون) أى قالوا له والله لئن اختطفه منا الذئب فى الصحراء ونحن جماعة شديدة البأس تكفى بنا الخطوب وتدفع مهمات الأمور — إنا إذاً لهالكون ولا غناء عندنا ولا نفع ولا ينبغى أن يعتد بنا ويركن إلينا .

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ ، وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٥) وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ، قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (١٨)

تفسير المفردات

أجمعوا : أى عزموا عزما لاتردد فيه ، وأوحينا إليه : أى ألهمناه كما فى قوله : « وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى » والعشاء : من الغروب إلى العَتَمة : أى حين يخالط سواد الليل بقية بياض النهار ، والاستباق : تكلف السبق فى العَدْو أو فى الرمى ، والمتاع : فضل الثياب وماعون الطعام والشراب ، ومؤمن : أى مصدق ، وسولت : زينت وسهّلت ، والصبر الجميل : مالا شكوى فيه إلى الخلق ، على ماتصفون : أى من هذه المصيبة وعظيم الرَزْء .

المعنى الجملى

جاءت هذه الآيات الأربع لبيان ما اعتزموا عليه ونفذوه بالفعل وماعتذروا به لأبيهم من كذب ، وماقابلهم به من تكذيب وصبر واستعانة بالله عز وجل .

الايضاح

(فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لايشعرون) أى فلما ذهب به إخوته من عند أبيه بعد مراجعتهم له وقد عزموا عزما

إجماعيا لاتردد فيه على إلقائه فى غيابة الجب ، نفذوا ذلك وحينئذ أوحينا إليه وحيا إلهاميا تطييبا لقلبه وتثبيتا لنفسه : لاتحزن مما أنت فيه ، فإن لك من ذلك فرجا ، ومخرجا حسنا ، وسينصرك الله عليهم ، ويرفع درجتك ، وستخبرهم بما صنعوا وهم لايشعرون بأنك يوسف .

وفى هذا إيماء إلى أنه سيخْلُص من هذه المحنة ويصيرون تحت سلطانه وقهره .

(وجاءوا أباهم عشاء يبكون . قالوا ياأبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين) أى جاءوه وقت العشاء حين خالط سوادُ الليل بياضَ النهار ـ حال كونهم يبكون ليقنعوه بما يريدون قائلين له : إنا ذهبنا من موضع اجتماعنا نتسابق ونترامى بالنبال ، وتركنا يوسف عند ثيابنا وأزوادنا ليحفظها ، إذ لايستطيع مجاراتنا فى استباقنا الذى يُرْهِق القُوَى فأكله الذئب ، إذ بعدنا عنه ولم نسمع استغاثته ولا صُراخه ، ونحن نعلم أنك لاتصدقنا ولو كنا عندك صادقين ، فكيف وأنت تتهمنا فى ذلك ؟ ولك العذر فى هذا لغرابة ماوقع ، وعجيب ما اتفق لنا فى ذلك الأمر .

(وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون) أى إنهم جاءوا بقميصه مُلَطَّخا ظاهره بدم غير دم يوسف ، وهم يدّعون أنه دمه ، ليشهد بصدقهم ، فكان دليلا على كذبهم ، ومن ثم قال : (على قميصه) ليستبين للقارىء والسامع أنه موضوع وضعا متكلّفا ، إذ لوكان من افتراس الذئب لتمزّق القميص ، وتغلغل الدم فى كل قطعة منه ، ومن أجل هذا كله لم يصدقهم وقال : هيهات ، ليس الأمر كما تدعون ، بل سهلت لكم أنفسكم الأمّارة بالسوء أمرا نُكْراً وزيّنَتْه فى قلوبكم فطوعته لكم حتى اقترفتموه ، وسأصبر صبرا جميلا على هذا الأمر الذى اتفقتم عليه حتى يُفرّجه الله بعونه ولطفه ، وإنى أستعين به على أن يكفينى شر ما تصفون من الكذب .

وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ ، قَالَ يَا بُشْرَى هٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠)

تفسير المفردات

السيارة : الرفقة تسير معا ، والوارد : الذى يرد الماء ليستقى للقوم ، وأسروه : أى أخفَوْه من الناس ، والبضاعة : القطعة من المال يُفْرَز للاتجار به ، وشرى الشيء : باعه واشتراه : ابتاعه ، والبخس : الناقص والمعيب كما قال «وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ» والمراد هنا الحرام أو الظلم لأنه بيع حر .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أن إخوة يوسف أجمعوا امرهم على إلقائه فى غيابة الجب ونفّذوا ذلك ، ذكر هنا طريق خلاصه من تلك المحنة بمجيء قافلة من التجار ذاهبة إلى مصر ، فأخرجُوه من البئر وباعوه فى مصر بثمن بخس

الإيضاح

(وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يابشرى هذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون) أى وجاءت ذلك المكان قافلة تسير من مَدْيَن إلى مصر فأرسلوا واردهم الذى يجلب لهم الماء للاستسقاء فأرسل دلوه ودلاّه فى ذلك الجب فتعلق به يوسف ، ولما خرج ورآه قال مبشِّرا جماعته السيارة : يابشرى هذا غلام أى آن وقت البشرى فاحضرى ، كما يقال ياأسفا وياحسرتا إذا وقع ماهو سبب لذلك فاستبشرت به السيارة وأخفَوْه من الناس ، لئلا يدّعيه أحد من أهل ذلك المكان لأجل أن يكون بضاعة لهم من جملة تجارتهم ، والله عليم بما يعمله هؤلاء السيارة ومايعمله إخوة يوسف،

فلكل منهم مقصد خاص فى يوسف ، فالسيارة يدّعون بالباطل أنه عبد لهم فيتجرون به ، وإخوة يوسف يريدون إخفاءه عن أبيه ويدّعون أن الذئب قد أكله ، وذلك كيد بالباطل ، ليمضى فيه وفيهم حكمه السابق فى علمه ، وليرى إخوة يوسف ويوسف وأبوه قدرته تعالى على تنفيذ ماأراد .

وفى هذا تذكير من الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وتسلية له على كان يلقى من أقربائه وأنسبائه المشركين من الأذى فكأنه يقول له : اصبر على مانالك فى الله ، فإنى قادر على تغيير ذلك ، كما قدرت على تغيير ما لقى يوسف من إخوته ، وسيصير أمرك إلى العلوّ عليهم كما صار أمر يوسف مع إخوته إذ صار سيدهم .

(وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين) أى وباعه السيارة فى مصر بثمن قليل ناقص عن ثمن مثله من الدراهم القليلة التى تعد عدّا ولاتوزن وزنا ، وكانوا لايزنون إلا مابلغ الأوقية (أربعين درهما) فما فوقها ويعدون مادونها ، ومن ثم يعبرون عن القليل بالمعدود ، وفى سفر التكوين من التوراة أن إخوته قرروا بيعه للاسماعيليين أى للعرب ، وقد أخرجه من الجب جماعة من أهل مدين وباعوه لهم ، وكان الذين باعوه من الراغبين عنه الذين يبغون الخلاص منه ،لئلا يظهر من يطالبهم به لأنه حر ، والثمن لم يكن مقصودا لهم حين بيعه ومن ثم قنعوا بالبخس منه .

وَقَالَ الَّذِى اشْتَرَاه مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ، وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ، وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (٢٢)

تفسير المفردات

المثوى : مكان الثواء والإقامة ، مكنا ليوسف : أى جعلنا له مكانة رفيعة فى أرض مصر ، من تأويل الأحاديث : أى بعض تعبير الرؤيا التى عُمْدَتُها رؤيا الملك وصاحبى السجن ، وغالب على أمره . أى لا يُمنع عما يشاء ولا ينازَع فيما يريد ، وأشده : هو رشده وكمال قوته باستكمال نموه الجسمانى والعقلى حكما أى حكما صحيحا يزن به الأمور بميزان صادق ، وعلما بحقائق الأشياء .

المعنى الجملى

هاتان الآيتان مبدأ قصص يوسف فى بيت العزيز الذى اشتراه ، وفيهما بيان تمكين الله له وتعليمه تأويل الأحاديث وإيتائه حكما وعلما وشهادة من الله له بأنه من زمرة المحسنين .

الايضاح

(وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه) لم يبين الكتاب الكريم اسم الذى اشتراه فى مصر ولا منْصَبه ولا اسم امرأته ، لأن ذلك لايهم فى العبرة من القصة ولا يزيد فى العظة ، ولكن لقبه النسوة فيما يأتى (بالعزيز) وهو اللقب الذى لقب به يوسف بعد أن تولى إدارة الملك فى مصر ، والظاهر أنه لقب أكبر وزراء الملك ، وفى سفر التكوين أنه كان رئيس الشرط وحامية الملك ، وناظر السجون ، وأن اسمه فوطيفار وقد تفرس هذا الوزير فيه أصدق الفراسة ، إذ وصَّى امرأته بإكرام مثواه أى بحسن معاملته فى كل شئونه حتى يكون كواحد منهم ولا يكون كالعبيد والخدم .

وخلاصة ما قال — أحسنى تعهده ، وانظرى فيما يقتضيه إكرام الضيف على أبلغ وجه وأتمه .

وروى عن عبد الله بن مسعود أنه قال : أفرس الناس ثلاثة : عزيز مصر حين قال لامرأته (أكرمى مثواه) والمرأة التى قالت لأبيها (يأبت استأجره) الآية وأبو بكر حين استخلف عمر بن الخطاب رضى الله عنهما .

ثم بين علة إكرامه برجائه فيه وعظيم أمله فى جليل مساعدته فقال :

(عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا) أى علَّه أن ينفعنا فى أمورنا الخاصة إذا تدرّب فيها وعرف مواردها ومصادرها أو شئون الدولة العامة لما يلوح عليه من مخايل الذكاء والنجابة ، أو نتبناه ونقيمه مقام الولد فيكون قُرة عين لنا ووارثا لمالنا ومجدنا ، إذا تم رشده ونَضِج عقله . وفى الآية إيماء إلى شيئين .

(١) إن العزيز كان عقيما .

(٢) إنه كان صادق الفراسة ثاقب الفكر، فقد استدل من كمال خَلْقِه وَخُلُقِه على أن حسن عشرته وكرم وفادته وشرف تربيته مما يُكْمِل استعداده الفطرى ، فالتجارب دلت على أنه لايفسد الأخلاقَ شىء أكثر مما تفسدها البيئة الفاسدة وسوء القدوة

(وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض) أى وعلى ذلك النحو من التدبير جعلنا ليوسف مكانة عالية فى أرض مصر كان مبدؤها عطف العزيز عليه ورجاءه فيه ، فوقع له فى بيته ثم فى السجن من الأحداث ما كان سببا فى اتصاله بساقى الملك ثم بالملك نفسه .

(ولنعلمه من تأويل الأحاديث) أى ولنعلمه بعض تعبير الرؤيا ، ومعرفة حقائق الأمور ، مما ينتهى إلى غاية التمكين لدى الملك ، حتى ليقول له : « اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ » ويقول له الملك « إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ »

(والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون) أى والله غالب على كل أمر يريده ، فلا يُغْلب على شىء منه ، بل يقع كما أراد « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » فما حدث من إخوة يوسف له وما فعله مسترقّوه وبائعوه وما وصَّى به الذى اشتراه امرأته من إكرام مثواه ، وما وقع له مع هذه المرأة من الأحداث ومن دخوله السجن ـ قد كان من الأسباب التى أراد الله تعالى له بها التمكين

فى الأرض ، ولـكن أكثر الناس يأخذون الأمور بظواهرها كما زعم إخوة يوسف أنه لو أبعد يوسف عنهم خلا لهم وجه أبيهم وكانوا من بعده قوما صالحين ، وقوله : أكثر الناس ، إيماء إلى أن الأقل يعلمون ذلك كيعقوب عليه السلام ، فإنه يعلم أن الله غالب على أمره ، فهاهى ذى أقواله السابقة واللاحقة صريحة فى ذلك ، ولـكن علمه إجمالى لا تفصيلى ، اذ لا يحيط بما تخبئه الأقدار .

و بعد أن بيَّن سبحانه أن إخوة يوسف أساءوا إليه وصبر على تلك الشدائد حتى مكن الله له فى أرض مصر ، بين هنا أنه آتاه الحـكم والعلم حين استكمال سن الشباب و بلوغ الأشد ، وأن ذلك جزاء منه سبحانه على إحسانه فى سيرته فقال عز اسمه :

(ولمـا بلغ أشده آتيناه حكما وعلما) أى ولما بلغ سن رشده وكمال قوته باستكمال نموه البدنى والعقلى ، وهبناه حكما صحيحا فيما يعرض له من مهامّ الأمور ، ومشكلات الحوادث ، مقرونا بالحق والصواب ، وعلما لدنيا وفـكريا بما ينبغى أن تسير عليه الأمور .

وقدر الأطباء هذه السن بخمس وعشرين سنة ، وقد أثبت علماء الاجتماع أن الاستعداد الإنسانى يظهر رويدا رويدا حتى إذا ما بلغ المرء خمسا وثلاثين سنة وقف عند هذا الحد ولم يظهر فيه شىء جديد غير ماظهر من بدء سن التمييز إلى هذه السن ولهذا قال ابن عباس إنها ثلاث وثلاثون سنة .

(وكذلك نجزى المحسنين) أى ومثل ذلك الجزاء العظيم نجازى به المتحلين بصفة الإحسان الذين لم يدنسوا أنفسهم بسيئات الأعمال ، فنؤتيهم نصيبا من الحـكم بالحق والعدل ، وعلما يظهره القول الفصل ، إذ يكون لذلك الإحسان تأثير فى صفاء عقولهم ، وجودة أفهامهم ، وفقههم لحقائق الأشياء غيرما يستفيدون بالـكسب من غيرهم ، ولا يتهيأ مثل ذلك للمسيئين فى أعمالهم المتبعين لأهوائهم وطاعة شهواتهم .

وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللهِ ، إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ، كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ، قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥)

تفسير المفردات

راودته على الأمر مراودة : طلبت منه فعله مع المخادعة ، فالمراود يتلطف فى طلبه تلطف المخادع ويحرص عليه ، وقال الراغب : المراودة أن تنازع غيرك فى الإرادة فتريد منه غير ما يريد كما قال إخوة يوسف (سنراود عنه أباه) أى نحتال عليه ونخدعه عن إرادته ليرسل بنيامين معنا ، وهيت لك بفتح الهاء وكسرها مع فتح التاء وضمها أى أى هلم أقبل وبادر ، وقد روى أنها لغة عرب حوران ، واختيرت لأنها أخص ما يؤدى المراد مع النزاهة الكاملة ، ومعاذ الله : أى أعوذ وأتحصن بالله من أن أكون من الجاهلين الفاسقين ، وهمت به : أى هممت لتبطش به لعصيانه أمرها ، وهمّ بها ليقهرها فى الدفع عما أرادته ويرد عنفها بمثله ، وبرهان ربه : إما النبوة التى تلى الحكم والعلم اللذين آتاه الله إياهما بعد بلوغ الأشد ، وإما مراقبة الله تعالى ورؤية ربه متجليا له ناظرا إليه كما جاء فى الحديث فى تفسير الإحسان « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » والمخلصون : هم الذين اجتباهم الله واختارهم لطاعته ، واستبقا الباب : اى تسابقا إلى الباب وقصد كل منهما سبق الآخر إليه ، فهو ليخرج وهى لتمنعه من الخروج ، وقدّت قميصه من دبر : أى قطعته طولا من خلف ، وألفيا : أى وجدا .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه وصية العزيز لامرأته بإكرام مثواه، وعلل ذلك بحسن الرجاء فيه ثم بين عنايته سبحانه به وتمهيد سبل كماله بتمكينه فى الأرض - ذكر هنا مراودة امرأته له ونظرها إليه بغير العين التى نظر بها زوجها إليه وأرادت منه غير ما أراده هو وما أراد الله من فوقهما وأعدت العُدة لذلك فغلقت الأبواب ؛ فهرب منها إلى باب المخدع فقدَّت قميصه من خلف ووجدا زوجها بالباب الخارجى فبادرت إلى اتهامه بالسوء إلى أن استبانت براءته .

الإيضاح

(وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه) أى وخادعت امرأة العزيز يوسف عن نفسه ورواغته ، ليريد منها ما تريد هى منه مخالفا لإرادته و إرادة ربه ، والله غالب على أمره ، قال فى الكشاف : كأن المعنى خادعته عن نفسه، أى فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه عن شىء لا يريد إخراجه من يده وهو يحتال أن يأخذه منه ، وهى عبارة عن التحيل فى مواقعته إياها اه .

(وغلّقت الأبواب) أى وأحكمت إغلاق باب المخدع الذى كانا فيه و باب البهو الذى يكون أمام الغرف فى بيوت العظماء و باب الدار الخارجى وربما كان هناك غيرها .

(وقالت هيت لك) أى وقالت هَلُمَّ أقْبِل ، وزيدت كلمة (لك) لبيان المخاطب كما يقولون : سقيا لك ورعيا لك ، وهذا الأسلوب هو الغاية فى الاحتشام فى التعبير ، وقد يكون هناك مازادته من إغراء وتهييج مما تقتضيه الحال . وما نقل من الإسرائيليات عنها وعنه من الوقاحة فكذب ، فمثل هذا لا يعلم إلا من الله أو من الرواية الصحيحة عنها أو عنه ، ولا يستطيع أحد أن يدَّعى ذلك .

(قال معاذ الله) أى أعوذ بالله عز وجل وألتجىء إليه مما تريدين منى فهو يعيذنى أن أكون من الجاهلين كما سيأتى من قوله « وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ » .

(إنه ربى أحسن مثواى) أى إنه سيدى المالك لرقبتى ، قد أحسن معاملتى فى إقامتى عندك وأوصاكِ بإكرام مثواى ، فلا أجزيه بالإحسان إساءة وأخونه فى أهله ، ثم علل ما صنع بقوله :

(إنه لايفلح الظالمون) أى إنه تعالى لايفلح الظالمين لأنفسهم والظالمين للناس بخيانة وتعدّ على الأعراض لا فى الدنيا ببلوغ الإمامة والرياسة ولا فى الآخرة بالوصول إلى رضوان الله تعالى ودخول جنات النعيم .

وفى هذا إيماء إلى الاعتزاز بربه ، والأمانة لسيده ، والتعريض بخيانة امرأته ، واحتقارها بما أضرم نار الغيظ فى صدرها .

(ولقد همت به) أى ولقد همت بأن تبطش به ، إذ عصى أمرها وخالف مرادها وهى سيدته وهو عبدها ، وقد استذلت له بدعوته إلى نفسها بعد أن احتالت عليه بمراودته عن نفسه ، وكلما ألحت عليه ازداد عتوّا واستكبارا ، معتزا عليها بالديانة والأمانة ، والترفع عن الخيانة ، وحفظ شرف سيده وهوسيدها ، ولاعلاج لهذا إلا التذليل بالانتقام ، وهذا ما شرعت فى تنفيذه أوكادت بأن همت بالتنكيل به .

(وهمّ بها) لدفع صيالها عنه وقهرها بالبعد عما أرادته .

(لولا أن رأى برهان ربه) أى ولكنه رأى من ربه فى سريرة نفسه ماجعله يمتنع من مصاولتها واللجوء إلى الفرار منها .

والخلاصة — إن الفارق بين همها وهمه ، أنها أرادت الانتقام منه شفاء لغيظها إذ فشلت فيما تريد ، وأهينت بعتوه واستكباره وإبائه لما أرادت ، وأراد هوالاستعداد للدفاع عن نفسه ، وهمّ بها حين رأى أمارة وثوبها عليه ، فكان موقفهما موقف المواثبة والاستعداد للمضاربة ، ولكنه رأى من برهان ربه وعصمته مالم ترمثله إذ ألهمه أن الفرار من هذا الموقف هو الخير الذى به تتم حكمته فيما أعده له ، فاستبقا باب الدار وكان من أمرهما ما يأتى بيانه فيما بعد ، هذا خلاصة رأى نقله ابن جرير وأيده الفخر الرازى وأبو بكر الباقلانى .

و يرى غيرهم من المفسرين أن المعنى أنها همت بفعل الفاحشة ولم يكن لها معارض ولامانع ، وهمّ هو بمثل ذلك ، ولولا أن رأى برهان ربه لاقترفها .

وقد فنّده بعض العلماء لوجوه :

(١) إن الهم لايكون الا بفعلٍ للهامٍّ ، والوقاع ليس من أفعال المرأة حتى تهم به ، و إنما نصيبها منه قبوله ممن يطلبه منها بتمكينه منه .

(٢) إن يوسف لم يطلب منها هذا الفعل حتى يسعى قبولها لطلبه ورضاها بتمكينه همًّا لها ، فالآيات قبل هذه و بعدها تبرئه من ذلك بل من وسائله ومقدماته .

(٣) إنه لو وقع ذلك لوجب أن يقال (ولقد هم بها وهمت به) لأن الهم الأول هو المقدم بالطبع وهو الهم الحقيقى والهم الثانى متوقف عليه .

(٤) إنه قد علم من هذه القصة أن هذه المرأة كانت عازمة على ماطلبته طلبا جازما ومصرّة عليه ، فلا يصح أن يقال إنها همت به ، إذ الهم مقاربة الفعل المتردد فيه ، بل الأنسب فى معنى الهمّ هو مافسرناه به أوّلا ، وذلك لإرادة تأديبه بالضرب .

وقد رووا هنا أخبارا من الإسرائيليات عن تهتك المرأة وتبذلها مما لايقع مثله من أوقح الفساق الذين تجردوا من جلابيب الحياء فضلا عمن ابْتُـلِى بالمعصية أول مرة من سليمى الفطرة الذين لم تغلبهم ثورة الشهوة الجامحة على حيائهم الفطرى وحيائهم من نظر ربهم إليهم .

(كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء) أى جرت أفعالنا وأقدارنا كذلك لنصرف عنه دواعى ما أرادت به من السوء وماراودته عليه قبله من الفحشاء ـ بعصمة منا تحول دون تأثير دواعيهما الطبيعية فى نفسه ، حتى لايخرج من جماعة المحسنين إلى جماعة الظالمين الذين ذمهم وشهد هو فى رده عليها بأنهم لا يفلحون ، وقال : لنصرف عنه السوء والفحشاء ، ولم يقل لنصرفه عن السوء والفحشاء ، لأنه لم يعزم عليهما بل لم يتوجه اليهما فيصرف عنهما .

(إنه من عبادنا المخلصين) أى إنه من جماعة المخلصين وهم آباؤه الذين أخلصهم ربهم وصفّاهم من الشوائب وقال فيهم « وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ

أُولِى الْأَيْدِى وَالْأَبْصَارِ . إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ . وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ » .

(واستبقا الباب) أى تسابقا إلى الباب ففر يوسف من أمامها هاربا إليه طالبا النجاة منها مرجحا الفرار على الدفاع الذى لاتعرف عاقبته ، وتبعته هى تبغى إرجاعه حتى لايفلت من يدها ، وهى لاتدرى إذا هو خرج إلى أين يذهب ، ولاماذا يقول ولامايفعل ؟ لكنها أدركته .

(وقدت قميصه من دبر) أى جذبته من ردائه وشدت قميصه فانقدّ .

(وألفيا سيدها لدى الباب) أى وجدا زوجها عندالباب ، وقد كان النساء فى مصر يلقبن الزوج بالسيد ، ولم يقل سيدها لأن استرقاق يوسف غير شرعى ، وهذا كلام ربه العليم بأمره ، لا كلام من استرقّه .

(قالت ماجزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم) أى وحينئذ خرجت مما هى فيه بمكرها وكيدها ، وقالت لزوجها متنصلة من جُرمها وقاذفة يوسف : ماجزاء من أراد بأهلك شيئا يسوءك صغيرا كان أو كبيرا إلا سجن يعاقب به ، أو عذاب مؤلم موجع يؤدبه ويلزمه الطاعة .

قال الرازى : وفى هذا القول ضروب من الحيل .

(١) إيهام زوجها أن يوسف قد اعتدى عليها بما يسوءها ويسوءه .

(٢) إنها لم تصرح بجرمه حتى لايشتد غضبه ويقسو فى عقابه . كأن يبيعه أو يُقْصِيَه عن الدار ، وذلك غير ماتريد .

(٣) إنها هددت يوسف وأنذرته بما يعلم منه أن أمره بيدها ليخضع لها ويطيعها .

(٤) إنها قالت . إلا أن يسجن والمراد منه أن يسجن يوما أو أقل على سبيل التخويف فحسب ، أما الحبس الدائم فكان يقال فيه : (يجب أن يجعل من المسجونين) ألا ترى أن فرعون حين هدد موسى قال (لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلٰهاً غَيْرِى لَاجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ) .

وجملة القول فى هذا — أن يوسف عليه السلام كان قوى الإرادة لايمكّن غيره أن يحتال عليه ويصرفه عن رأيه ويجعله خاضعا له ، ومن ثم لم تستطع امرأة العزيز أن تحوِّل إرادته إلى ماتريد بمراودتها ، ولا عجب فى ذلك فهو فى وراثته الفطرية والمكتسبة ومقام النبوة عن آبائه الأكرمين ، ومااختصه به ربه من تربيته والعناية به ، وماشهد له به من العرفان والإحسان والاصطفاء ، وماصرف عنه من دواعى السوء والفحشاء — فى مكان مكين وحرز حصين من أن تتطلع نفسه إلى اجتراح السيئات ، وارتكاب المنكرات ، فكل ماصوَّروه به من الصور البشعة الدالة على الميل إلى الفجور إنما هو من فعل زنادقة اليهود ، ليُلْبسوا على المسلمين دينهم ، ويشوِّهوا به تفسير كلام ربهم ولايغرَّنك إسناد تلك الروايات إلى بعض الصحابة والتابعين فهى موضوعة عليهم ، ولا ينبغى أن يعتدَّ بها ، لأن نصوص الدين تنْبذها ، إلى أنه من علم الغيب فى قصة لم يُعلم الله رسوله غير ماقصه عليه فى هذه السورة ، وكفى بهذا دلالة على وضعها .

تحقيق زوجها وحكم قريبها وظهور براءة يوسف

قَالَ هِيَ رَاوَدْتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فى الآيات السابقة مخادعتها ليوسف عن نفسه وتغليقها الأبواب وهر به منها إلى الباب وجذبها لقميصه ورؤية سيدها لذلك الحادث واتهامها ليوسف

بإرادة السوء منها ـ ذكر هنا تبرئة يوسف لنفسه وحكم قريبها فى القضية بعد بحث وتشاور بين زوجها وأهلها ، ثم علم الزوج ببراءة يوسف وثبوت خطيئتها .

الإيضاح

(قال هى راودتنى عن نفسى) أى هى طلبتنى فامتنعتُ وفررت كما ترى ، وقد قال هذه المقالة وهتك سترها خوفا على النفس والعرض ، ولاشك أن هذه حال تحتاج إلى بحث وتشاور وأخذ وردّ لم يبينه لنا الكتاب الكريم وإن كان لابد أن يحصل حتما كما هو مقتضى العادة والعقل ، لأن المقصد من القصة بيان نزاهة يوسف وفضائله لتكون عبرة لغيره .

وكانت الأمارات دالة على صدق يوسف لوجوه :

(١) إن يوسف كان مولى لها ، وفى مجرى العادة أن المولى لايجرؤ أن يتسلط على سيدته ويتشدد إلى مثل هذا .

(٢) إنهم رأوا يوسف يعدو عدوا شديدا ليخرج ، ومن يطلب امرأة لايخرج على هذا النحو .

(٣) إنهم رأوا الزينة قد بدت على وجه المرأة ، ولم يكن لها من أثر على وجه يوسف .

(٤) إنهم لم يشاهدوا من أخلاق يوسف فى تلك الحِقْبة الطويلة مايؤيد مثل هذه التهمة أو يقوى الظن عليه بأنه هو الطالب لا الهارب .

وقد أظهر الله لبراءته مايقوِّى تلك الدلائل الكثيرة التى تظاهرت على أن بدء الفتنة كانت منها لامنه وأنها هى المذنبة لاهو وذلك ماأشار إليه بقوله :

(وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قدّ من قُبُل فصدقت وهو من الكاذبين . وإن كان قميصه قدّ من دبر فكذبت وهو من الصادقين) أى وحكم ابن عمّ لها مستدلا بما ذكر ، وكان عاقلا حصيف الرأى فقال : قد سمعنا جَلَبَة وضوضاء ورأينا

شق القميص إلا أنا لا ندرى أيُّكُما كان قدام صاحبه ، فإن كان شق القميص من قدام فصدقت فى دعواها أنه أراد بها سوءا ، إذ الذى يقبله العقل أنه لما وثب عليها أخذت بتلابيبه فجاذبها فانقدّ قميصه وهما يتنازعان و يتصارعان ، وهو من الكاذبين فى دعواه أنها راودته فامتنع وفرّ هاربا فتبعته وجذبته تريد إرجاعه ، وإن كان قميصه قدّ من الخلف فكذبت فى دعواها أنه هجم عليها يريد ضربها ، وهو من الصادقين فى قوله : أنه فرّ هاربا منها .

روى أن هذا الشاهد كان صبيا فى المهد وأيدوه بما نقل عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « تكلم أربعة وهم صغار : ابن ماشطة فرعون ، وشاهد يوسف ، وصاحب جُرَيج ، وعيسى ابن مريم » وما روى عن أبى هريرة قال « عيسى بن مريم وصاحب يوسف وصاحب جريج تكلموا فى المهد » وهذا موقوف لا يصلح الاحتجاج به ، والأول قد ضعّفه رجال الحديث ، إلا أنه لو نطق الطفل بهذا لكان قوله كافيا فى تفنيد زعمها دون حاجة إلى الاستدلال بتمزيق القميص ، لأنه من الدلائل الظنية ، وكلامه فى المهد من الدلائل اليقينية ، وأيضا لو كان كذلك لما كان هناك داع إلى قوله : من أهلها الذى ينفى التحامل عليها و يمنع إرادة الضر بها ، وأيضا فإن لفظ (الشاهد) لا يقع عرفا إلا على من تقدمت معرفته لما يشهد و إحاطته به .

(فلما رأى قميصه قدّ من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم) أى فلما نظر إلى القميص ورأى الشق من الخلف أيقن بصدق قوله واعتقد كذبها ، وقال إن هذا محاولة للتنصل من جُرْمها باتهامها له بضروب الكيد المعروفة عن النساء ، فهو سنة عامة فيهن ، فهن يجتهدن فى التبرى من خطاياهن ماوجدن إلى ذلك سبيلا ، وكيد النساء عظيم لا قِبَل للرجال به ، ولا يفطنون لحيلهن حتى يدفعوها قدر المستطاع ، ولا شك أن هذه شهادة من قريب لها لا يتهم بالتحامل عليها ولا بظلمها وتجريحها برميها بما هى منه بَرَاء .

(يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين) أى يا يوسف

أعرض عن ذكر هذا الكيد الذى حصل ولا تتحدث به ، كى لا ينتشر أمره بين الناس ولا تخف من تهديدها وكيدها لك ، وأنتِ أيتها المرأة توبى إلى ربك ، واستغفرى لذنبك ، إنك كنت من زمرة المجرمين الذين يتعمدون ارتكاب الخطايا ويجترحون السيئات وهم مصرُّون عليها .

حديث النسوة فى المدينة ومكر امرأة العزيز بهن

وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ، فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ، وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤) ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ (٣٥)

تفسير المفردات

فتاها : عبدها ورقيقها ، والشغاف : الغلاف المحيط بالقلب ويقال شَغَفْتُ فلانا إذا أصبت شغاف قلبه ، كما يقال : كبدته إذا أصبت كبده ، والضلال : الحيْدة عن طريق

الرشد وسنن العقل ، بمكرهن : أى بقولهن ، وسمى ذلك مكرا لأنهن كن يردن إغضابها كى تَعْرِض عليهن يوسف لتبدى عذرها فيفزن بمشاهدته ، وأعتدت : أعدّت وهيأت ، والمتكأ : مايُجلس عليه من كراسى وأرائك ، وأكبرنه : أعظمنه ودهشن من جماله الرائع ، وقطّعن أيديهن : أى جرحنها ، حاش لله أى تنزيها لله أن يكون هذا المخلوق العجيب من جنس البشر ، واستعصم : استمسك بعروة عصمته التى ورثها عن نشئوا عليها ، الصاغرين : أى الأذلة المقهورين ، وأصبُ إليهن : أمِلْ إلى موافقتهن على أهوائهن ، والجاهلين : أى السفهاء الذين يرتكبون القبائح ،فاستجاب له: أى أجاب دعاءه ، و بدا : ظهر ، والآيات هى الشواهد الدالة على براءته عليه السلام ، والحين : وقت من الزمن غير محدود .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه تحقيق زوجها فى الحادث وحكم أحد أقاربها بما رأى ، وقد استبان منه براءة يوسف ، ذكر هنا أن الأمر قد استفاض فى بيوت نساء الوزراء والكبراء فأحببن أن يمكرن بها ، لتريهن هذا الشاب الذى فتنها جماله ، وأذلها عفافه وكماله ، حتى راودته عن نفسه وهو فتاها ، ودعته إلى نفسها فردها وأباها خشية لله وحفظا لأمانة السيد المحسن إليه أن يخونه فى أعز شىء لديه ــ عله بعد هذا يصبو إليهن و يجذبه جمالهن و يكون له فيهن رأى غير مارآه فيها ، فإنه قد ألف جمالها قبل أن يبلغ الأشد ، وكان ينظر إليها نظرة العبد إلى سيدته ، أو الولد إلى والدته .

الايضاح

(وقال نسوة فى المدينة) لم يشر الكتاب الكريم إلى عددهن ولا إلى صفاتهن ، لأن العبرة ليست فى حاجة إلى ذلك ، والذى يقتضيه العرف ومجرى العادة أنه عمل

جماعة قليلة من بيوتات كبار الدولة يعهد منهن فى العرف أن يأتمرن ويتفقن على الاشتراك فى مثل هذا المكر ، إذ نساء البيوت الدنيا أو الوسطى لاتتجه أنظارهن إلى الإنكار على امرأة العزيز كبير وزراء الدولة ، ولا إلى مشاركتها فى سلب عشيقها ولا إلى التمتع بجماله الساحر ، وحادث مثل هذا جدير بأن ينتقل من بيت إلى بيت بوساطة الخدم ، ويكون الشغل الشاغل للنساء فى مجالسهن الخاصة وسمرهن فى البيوت ، وخلاصته :

(امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه) وهذا كلام يقال للإنكار والتعجب من حصوله لوجوه عدة :

(١) إنها امرأة العزيز الأكبر فى الدولة ، ولها المنزلة السامية بين نساء العظماء .

(٢) إن الذى تراوده عن نفسه هو فتاها ورقيقها .

(٣) إنها قد بلغ بها الأمر أن جادت بعفتها فكانت هى المراوِدة والطالبة للمراوَدة المطلوبة .

(٤) إنها وقد شاع ذكرها فى المدينة لم ينثن عزمها عما تريد ، بل لاتزال مُجِدّة فى نيل مرغوبها ، والحصول على مطلوبها ، كما يفيد ذلك قولهن (تراود) وهو فعل يدل على الاستمرار فى الطلب .

ثم أكدوا هذا الإنكار بقولهم :

(قد شغفها حبا) أى قد شق حبُّه شِغاف قلبها أى غلافه المحيط به وغاص فى سويدائه ، فملك عليها أمرها ، فلا تبالى بما يكون من عاقبة تهتكها ، ولابما يصير إليه حالها .

ثم زادوا ذلك تأكيدا بقولهم :

(إنا لنراها فى ضلال مبين) أى إنا لنعلم أنها غائصة فى مهاوى الضلالة البينة البعيدة عن طريق الهدى والرشاد ، ولم يكن قولهن هذا إنكارا للمنكر ، ولا كرها للرذيلة ، ولا نصرا للفضيلة ، بل قلنه مكرا وحيلة ، ليصل الحديث إليها ، فيحملها ذلك

على دعوتهن ، والرؤية بأبصارهن مايكون فيه معذرة لها فيما فعلت . وذلك منهن مكر لارأى ، وقد وصلن إلى ماأردن كما قال تعالى :

(فلما سمعت بمكرهن) أى فلما سمعت مقالتهن التى يردن بها إغضابها حتى تريهن يوسف إبداء لمعذرتها فينلن مايبغين من رؤيته ، وقد كان من المتوقع أن تسمع ذلك ، لما اعتيد بين الخدم من التواصل والتزاور ، وهن ماقلنه إلا لتسمعه ، فإن لم يتم لهن ماأردن احتلن فى إيصاله ، وقد كان ماأردن كما قال :

(أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكيناً) أى مكرت بهن كما مكرن بها ، ودعتهن إلى الطعام فى دارها، وهيأت لهن مايتكئن عليه من كراسى وأرائك كما هو المعروف فى بيوت العظماء ، وكان ذلك فى حجرة المائدة ، وأعطت كل واحدة منهن سكينا ، لتقطع بها ماتأكل من لحم وفاكهة .

(وقالت اخرج عليهن) أى وأمرته بالخروج عليهن ، وفى هذا إيماء إلى أنه كان فى حجرة فى داخل حجرة المائدة التى كن فيها محجوبا عنهن ، وقد تعمدت إتماما للحيلة والمكر بهن أن يفجأهن وهن مشغولات بما يقطعنه ويأكلنه علما منها بما يكون لهذه المفاجأة من الدهشة ، وقد تم لها ماأرادت كما يشير إلى ذلك قوله :

(فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن) أى فخرج عليهن فلما رأينه أعظمنه وَدهِشن لذلك الجمال البارع وذُهِلْن فقطّعن أيديهن بدلا من تقطيع مايأكلن ذهولا عما يعملن أى فجرحنها بما فى أيديهن من السكاكين ، لفرط دهشتهن وخروج حركات الجوارح عن منهاج الاختيار ، حتى لم يشعرن بما عملن ، ولا ألمِن لما نالهن من أذى ، واستعمال القطع بمعنى الجرح كثير فى كلامهم فيقولون كنت أقطع اللحم فقطعت يدى ، يريدون فأخطأتها فجرحت يدى حتى كدت أقطعها .

(وقلن حاش لله ماهذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم) أى وقلن هذا على نهج التعجب والتنزيه لله تعالى أن يكون هذا الشخص الذى لم يعهد مثاله فى جماله ولا فى عفته من النوع الإنسانى ، إن هو إلا ملك تمثل فى تلك الصورة البديعة التى تخلب الألباب وتدهش الأبصار .

روى عن زيد بن أسلم من مفسرى السلف : أعطتهن أُتْرُنجا (ثمر من نوع الليمون الحامض كبير مستطيل يؤكل بعد إزالة قشرته) وعسلا فكن يحززن بالسكين ويأكلنه بالعسل ، فلما قيل له : اخرج عليهن خرج ، فلما رأينه أعظمنه وتهيمّن به حتى جعلن يحززن أيديهن بالسكين وفيها الترنج ولا يعقلن ولا يحسبن إلا أنهن يحززن الأترنج ، قد ذهبت عقولهن مما رأين وقلن حاش لله ماهذا بشرا ، أى ماهكذا يكون البشر ، ماهذا إلاملك كريم .

(قالت فذلكن الذى لمتننى فيه) أى حينئذ قالت لهن : إذا كان الأمر مارأيتنّ بأعينكن ، وماأكبرتن فى أنفسكن ، ومافعلتن بأيديكن ، وماقلتن بألسنتكن ، فذلكن هو الذى لمتنّنى فيه ، وأسرفتن فى لومى وتعنيفى ، وقلتن فيما قلتن ، فما يوسف بالعبد العبرانى ، أو المملوك الكنعانى ، ولا بالخادم الصعلوك الذى شغف مولاته حبا وغراما ، وراودته عن نفسه ضلالا منها وهُياما ، بل هو ملَك تجلّى فى صورة إنسان ، فماذا أنتن قائلات فى أمرى ، وهو المالك لسمعى وبصرى ، وإنى لأراه بشرا سويا ، إنسيا لاجنيا ، وجسدا لاملكا روحانيا ، فأتصبّاه بكل ماأملك من كلام عذب ، فلا يصبو إلىّ ، ولا يُظْهِر نحوى عطفا ، ولا يرفع إلىّ طرفا

(ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) أى ولقد راودته عن نفسه فامتنع عما أرادته منه ، واستمسك بعروة العصمة التى ورثها عمن نشئوا عليها ، ولا عجب فإنّ نظره إلى الله لم يدع فى قلبه البشرى مكانا خاليا لنظرات هذه العاشقة التى شغفها حبا .

(ولئن لم يفعل ما آمره ليسجننّ وليكونا من الصاغرين) أى ولئن لم يفعل ماآمره به مستقبلا كما لم يفعله ماضيا : ليسجنن وليكونن من الأذلة المقهورين ، فإن زوجى لايخالف لى رغبة ، ولا يعصينى فى أمر ؛ وسيعاقبه بما أريد ، ويلقيه فى غيابات السجون ، ويجعله كغيره من العبيد بعد إكرام مثواه وجعله كولده .

وفى ذلك إيماء إلى أنها ستشدد العقوبة عليه أكثر مما توعدت به أوّلا ، فهناك أنذرته بسجن قد يكون على أخف صورة وأقلها ، وعذاب بأهون أنواعه وألطفها كحبس

فى حجرة الدار ، أو لطمة على خديه تزيل منها الاحمرار ، وهنا أنذرته بسجن مؤكد وذل وصغار تأباه الأنفس الكريمة كنفس يوسف عليه السلام فأشقُّ الأعمال أهون على كرام الناس من الهوان والصغار .

وفى هذا التهديد من ثقتها بسلطانها على زوجها مع علمه بأمرها واستعظامه لكيدها ، ما كان من حقه أن يجعل يوسف يخاف من تنفيذ إرادتها ويثبت لديه عدم غيرته عليها كما هو الحال لدى كثير من العظماء المترفين العاجزين عن إحصان أزواجهن والمحرومين من نعمة الأولاد منهن .

وربما تكون مبالغتها فى تهديده بمحضر من هؤلاء النسوة لما فى قلبها منه من غُل وجوى بظهور كذبها وصدقه ، وتصميمه على عصيان أمرها ، ولتُظْهِر ليوسف أنها ليست فى أمرها على خيفة من أحد فتضيق عليه الحيل ، ولينصحنه فى موافقتها ويرشدنه إلى الخلاص من عذابها .

يالله! إن هذا لموقف يهدّ الجبال الراسيات، وتدبير لاقِبَل لأشد العزائم على احتماله، فامرأة ما كرة هتكت سترها ، وكاشفت نسوة بلدها بما تُسِر وتعلن من أمرها ، ونسوة تواطأن معها على الكيد له كما كادت له من قبل بمراودته عن نفسه ، ولا سبيل إلى دفع هذه الضراء ، وإبعاد تلك اللأواء ، إلا بمعونة من ربه ، وحفظه من نزغات الشيطان وكلاءة الرحمن ، ومن ثم جرى على لسانه ما أكنه جنانه :

(قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه) أى قال ربى أنت العليم بالسر والنجوى، والقدير على كشف تلك البلوى : إن السجن الذى هُددت به والمكث فى بيئة المجرمين على شظف العيش ورقة الحال ـ أحب إلى نفسى مما يدعو إليه أولئك النسوة من الاستمتاع بهن فى ترف القصور ، والاشتغال بحبهن عن حبك وبقربهن عن قربك .

وفى قوله مما يدعوننى إليه إيماء إلى أنهن خوفنه مخالفتها ، وزيّن له مطاوعتها فقلن له : أطع مولاتك وأنلها ماتهوى ، لتُكفى شرها ، وتأمن عقوبتها .

(وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن) أى وإن لم تبعد عنى شراك كيدهن وتُثَبِّتنى على ماأنا عليه من العصمة ، أمل إلى موافقتهن على أهوائهن وأقع فى شباك صيدهن وأرتع فى حمأة غوايتهن ، وقد لجأ يوسف إلى ألطاف ربه ، وسلك سبيل المرسلين من قبله ، فى فزعهم إلى مولاهم لينيلهم الخيرات ، ويبعد عنهم الشرور والموبقات ، وإظهارهم أن لاطاقة لهم إلا بمعونته سبحانه مبالغة فى استدعاء لطفه وعظيم كرمه ومنه .

(وأكن من الجاهلين) أى من السفهاء الذين تستخفهم الأهواء والشهوات ، فيجنحون إلى ارتكاب الموبقات واجتراح السيئات ، فمن يعش بين هؤلاء النسوة الماكرات المترفات لامَهْرَب له من الجهل إلا أن تعصمه بما هو فوق الأسباب والسنن العادية .

وفى هذا إيماء إلى أنه ماصبا إليهن ، ولا أحب أن يعيش معهن ، بل سأل ربه أن يديم له ماعوده من كشف السوء عنه فى قوله « كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ » .

(فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن) أى فأجاب له ربه دعاءه الذى تضمنه قوله : وإلا تصرف عنى كيدهن الخ فصرف عنه كيدهن وعصمه من الجهل والسفه باتباع أهوائهن .

(إنه هو السميع العليم) أى إنه هو السميع لدعاء من تضرع إليه وأخلص الدعاء له ، العليم بصدق إيمانهم وبما يصلح أحوالهم .

وفى هذا إرشاد إلى أن ربه حرسه بعنايته فى جميع أطواره وشئونه ، ورباه أكمل تربية وماخلاّه ونفسه فى أهون أموره .

(ثم بدا لهم من بعد مارأوا الآيات ليسجننه حتى حين) أى ثم ظهر للعزيز وامرأته ومن يهمه أمرهما كالشاهد الذى شهد عليها من أهلها ـ من الرأى مالم يكن

ظاهرا لهم من قبل ـ بعد أن رأوا من الآيات مااختبروه بأنفسهم وشهدوه بأعينهم ، مما يدل على أن يوسف لم يكن إنسانا كالذين عرفوا في أخلاقه وعفته واحتقاره للشهوات واللذات التى يتمتع بها سكان القصور ، وفى إيمانه بأن ربه لن يتركه بل يكلؤه بعين عنايته ، ويحرسه بوافر رعايته ، وقد استبان لهم ذلك من وجوه :

(١) إن افتنان سيدته فى مراودته وجذبها خلسات نظره لم تؤثر فى ميل قلبه إليها ، بل ظل مُعْرِضا عنها متجاهلا لها حتى إذا ماصارحته بما تريد استعاذ بربه ورب آبائه ، وعيَّرها بالخيانة لزوجها .

(٢) إنها لما غضبت وهمت بالبطش به هم بمقاومتها والبطش بها ، ولم يمنعه إلا ما رأى فى دخيلة نفسه من برهان ربه الذى يدل على أن ربه صارف عنه السوء والفحشاء .

(٣) إنها حين اتهمته بالتعدى عليها شهد شاهد من أهلها أنها كاذبة فى اتهامها إياه وهو صادق فيما ادعاه من مراودتها إياه عن نفسه بدلالة القميص على ذلك .

كل هذا أثبت لهم أن بقاءه فى هذه الدار بين ربتها وصديقاتها مثار فتنة لاتدرك غايتها ، وأن الحكمة هو تنفيذ رأيها الأول بسجنه لإخفاء ذكره وكف ألسنة الناس عنها فى أمره ، وأقسموا ليسجننه حتى حين دون تقيد بزمن معين ليروا ماذا يكون فيه من تأثير السجن وحديث الناس عنه .

وفى تنفيذ هذا العزم دلالة على ما كان لهذه المرأة الماكرة من سلطان على زوجها تقوده كيف شاءت ، حتى فقد الغَيْرة عليها ، فهو يجرى وراء هواها ، ويستجلب رضاها ، حتى أنساه ذلك مارأى من الآيات وعمل برأيها فى سجنه لإلحاق الهوان والصغار به حين أيست من طاعته وطمعت فى أن يذلله السجن لأمرها ويقف به عند مشيئتها .

وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ، نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ، ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ، إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ ، مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ شَيْءٍ ، ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٣٨)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه مكر النسوة بامرأة العزيز لتريهن يوسف ، ثم مكر امرأة العزيز بهن حتى قطّعن أيديهن وقلن فى يوسف ماقلن من وصف جماله ، ثم إظهار امرأة العزيز المعذرة لنفسها فيما فعلت ، وعزمها على سجنه إن لم يكن مطواعا لها ، ثم حماية الله له من كيدها بعد دعائه إياه ، ثم تدبير مؤامرة بين العزيز وامرأته وأهلها على إدخاله السجن مع كل مارأوا من الآيات حتى ينسى الناس هذا الحديث وتسكن تلك الثائرة فى المدينة .

ذكر هنا تنفيذهم لما عزموا عليه من إدخالهم إياه السجن ، وما كان من لطف الله به إذ أتاه من علم تعبير الرؤيا مايستطيع به أن يعبر لكل حالم عما يراه ، ويخبر كل أحد عما يسأله عنه مما لم يكن حاضرا لديه وماسيأتى له من طعام وشراب ونحو ذلك ، ثم ذكر قول يوسف إن هذا كله نعمة من نعم الإيمان بالله عليه وعلى آبائه إبراهيم وإسحق ويعقوب .

الايضاح

(ودخل معه السجن فتيان) أى فسجنوه ودخل معه فتيان مملوكان من غلمان ملك مصر أحدهما خبازه والآخر ساقيه ـ لخيانة نسبت إليهما كانت ستودى بحياته ، و بعد أن استقر بيوسف المقام فى السجن ـ سأله من فيه عن عمله فقال إنى أعبر الرؤى ، فقال أحد الفتيين لصاحبه تعال فلنجرّبه وكان من شأنهما معه ماقصه الله علينا بقوله

(قال أحدهما إنى أرانى أعصر خمراً) أى قال صاحب شرابه : إنى رأيت فى المنام أنى أعصر خمرا أى عنبا ليكون خمرا ، إذ الخمر لايُعْصَر ، وقيل إن عرب غسان وعَمَّان يسمون العنب خمرا . روى أنه قال رأيت حُبْلَة من كرم حسنة لها ثلاثة أغصان فيها عناقيد فكنت أعصرها وأسقى الملك .

(وقال الآخر إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه) أى وقال الآخر وهو الخباز ، وقد روى أنه قال : رأيت أنى أخرج من مطبخ الملك وعلى رأسى ثلاث سلال فيها خبز والطير تأكل من أعلاه .

(نبئنا بتأويله) أى قال كل واحد منهما : نبئنى بتأويل مارأيت أى بتفسيره الذى يئول إليه فى الخارج إذا كان حقا لاأضغاث أحلام .

ثم بينا له ثقتهما به فقالا :

(إنا نراك من المحسنين) أى الذين يحسنون تأويل الرؤيا ، وماقالا هذا إلا بعد أن رأيا من سعة علمه وحسن سيرته مع أهل السجن ماجعله كعبة قصادهم وقبلة استفتائهم .

وقد يكون المعنى : إنا نراك من الذين يحسنون بمقتضى غريزتهم ، و يريدون الخير للناس و إن لم يكن لهم فيه منفعه خاصة لهم .

وقد وجد يوسف عليه السلام من ثقة السائلَين بعلمه وفضله واهتمامهما بما يسمعان من تأويله لرؤياهما ماجعله يحدثهما بما هو المهم عنده وهو دعوتهما وجميع من فى السجن

إلى توحيد الله ، ولكنه جعل فى صدر كلامه مايطمئنهم على الثقة بصدقه ، وذلك بإظهار مامنّ الله به عليه من تعليمه ماشاء من أمور الغيب ، وأقرب ذلك إلى اقتناعهم مايختص بمعيشتهم ، ومن ثم جعله بدء الحديث معهم كما حكى سبحانه عنه .

(قال لايأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما) أى قال لهما لايأتيكما طعام إلا أخبرتكما به وهو عند أهله و بما يريدون من إرساله ومايئتهى إليه بعد وصوله إليكما روى أن رجال الدولة كانوا يرسلون إلى المجرمين طعاما مسموما يقتلونهم به ، وأن يوسف أراد هذا من كلامه .

وفى ذلك إيماء إلى أنه أوتى علم الغيب ، وهذا يجرى مجرى قول عيسى عليه السلام : « وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ » .

ومن هذا يعلم أن وحى الرسالة جاءه وهو فى السجن ، وبذلك تحقق قوله : « رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ » كما أن وحى الإلهام جاءه حين إلقائه فى غيابة الجب كما تقدم ذكره ، وكأنه سبحانه جعل فى كل محنة منحة ، وفى كل ماظاهره أنه بلاء نعمة .

(ذلكما مما علمنى ربى) أى ذلكما الذى أنبأتكما به بعض ماعلمنى ربى بوحى منه إلى لا بكهانة ولا عرافة ولامايشبه ذلك من تعليم بشرى يلتبس به الحق بالباطل و يشتبه فيه الصواب بالخطأ .

(إنى تركت ملة قوم لايؤمنون بالله) القوم هنا الكنعانيون وغيرهم من سكان أرض الميعاد ، والمصريون الذين هو بينهم فقد كانوا يعبدون آلهة منها الشمس ويسمونها (رع) ومنها عجلهم (أبيس) ومنها فراعنهم ، وكان التوحيد خاصا بحكمائهم وعلمائهم ، ومعنى تركها أنه ترك دخولها واتباع أهلها من عبدة الأوثان على كثرة أهلها ، وفى ذلك لفت لأنظارهما لأن يتركا تلك الملة التى هم عليها .

والمعنى — إنى برئت من ملة من لايصدق بالله ولايقر بوحدانيته وأنه خالق السموات والأرض ومابينهما .

(وهم بالآخرة هم كافرون) أى وهم يكفرون بالآخرة والحساب والجزاء على الوجه الذى دعا إليه الأنبياء ، إذ أنهم كانوا يصورون حياة الآخرة على صور مبتدعة ، منها أن فراعنتهم يعودون إلى الحياة الآخرة بأجسادهم المحنطة ويرجع إليهم الحكم والسلطان كما كانوا فى الدنيا ، ومن ثم كانوا يضعون معهم فى مقابرهم جواهرهم وحليهم، ويبنون الأهرام لحفظ جثثهم ومامعهم ، ولهم معتقدات أخرى فى تلك الحياة لاتشاكل ماجاء عنها على ألسنة الرسل عليهم السلام .

(واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحق ويعقوب) أى واتبعت ملة آبائى الذين دَعَوْا إلى التوحيد الخالص وهم إبراهيم وإسحق ويعقوب ، وفى ذكر ذلك ترغيب لصاحبيه فى الإيمان والتوحيد وتنفير لهما عما هما فيه من الشرك والضلال .

ثم بين أساس الملة التى ورثها عن أولئك الآباء الكرام فكانت يقينا له بقوله :

(ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء) أى لاينبغى لنا معشر الأنبياء أن نشرك بالله شيئا فنتخذه ربا مدبرا معه ولا إلها معبودا من الملائكة أو البشر كالفراعنة ، فضلا عما دونهما من البقر كالعجل أبيس أو من الشمس والقمر ، أو مايتخذ من التماثيل والصور لهذه الآلهة .

(ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس) أى عدم الإشراك من فضل الله علينا ، إذ هدانا إلى معرفته وتوحيده فى ربوبيته وألوهيته ، بوحيه وآياته فى الأنفس والآفاق ،

وعلى الناس بإرسالنا إليهم ، ننشر فيهم الدعوة ، ونقيم عليهم الحجة ، فنهديهم سبيل الرشاد ، ونبين لهم محجة الصواب ، ونبعدهم عن طرق الغواية والضلال .

(ولكن أكثر الناس لايشكرون) نعم الله عليهم ، فيشركون به أربابا وآلهة من خلقه ، يذلون أنفسهم بعبادتهم ، وهم مخلوقون لله مثلهم أو أدنى منهم .

يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْواحِدُ الْقَهّارُ (٣٩) ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاّ أَسْماءً سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ ، إِنِ الْحُكْمُ إِلاّ لِلّهِ ، أَمَرَ أَلاّ تَعْبُدُوا إِلاّ إِيّاهُ ، ذٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٤٠)

المعنى الجملى

بعد أن أبطل يوسف عليه السلام ماهما عليه من الشرك فيما سلف ، وذكر أنه قد اتبع ملة آبائه إبراهيم وإسحق ويعقوب ، وبين أن هذا فضل من الله ومنة عليهم وعلى الناس ، وكثير من الناس لايشكرون الخالق لهذه النعم فيعبدوه وحده دون أن يشركوا به أحدا ـ دعاهما هنا إلى التوحيد الخالص وأيده بالبرهان الذى لا يجد العقل محيصا من التسليم به والإقرار بصحته فقال :

الإيضاح

(ياصاحبى السجن) أى ياصاحبىّ فى السجن ، وناداهما بعنوان الصحبة فى هذه الدارالتى هى دار الأشجان وموضع الهموم والأحزان، وفيها تصفوالمودة وتخلص النصيحة ليَصْغَيَا إلى مقاله ، ويقبلا على استماع مايُلْقِى إليهما به ، فالآذان حينئذ مرهفة ، والقلوب قد انصرفت عن الدنيا ولذاتها ، وتفرغت لعالم آخر غير مايشغل الناس من زِبْرِج هذه الحياة وزخرفها .

(أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار) هذا استفهام لتقرير مايذكر بعده وتوكيده ، والمراد بالتفرق التفرق فى الذوات والصفات المعنوية التى ينعتونهم بها، والصفات الحسية التى يصورها لهم بها الكهنة والرؤساء من رسوم منقوشة ، وتماثيل منصوبة ، فى المعابد والهياكل ، والقهار : الغالب على أمره الذى لايغلبه أحد.

والمعنى — أأرباب كثيرون هذا شأنهم فى التفرق والانقسام ، ومايقتضيه ذلك من التنازع والاختلاف فى الأعمال والتدبير الذى يفسد النظام ـ خير لكما ولغيركما فيما تطلبون من كشف الضر وجلب النفع وكل ماتحتاجون فيه إلى المعونة من عالم الغيب، أم الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لاينازَع ولايعارض فى تصرفه وتدبيره ، وله القدرة التامة والإرادة العامة ، وهو المسخر لجميع القوى والنواميس الظاهرة التى تقوم بها نظم العوالم السماوية والأرضية من نور وهواء وماء ، والغائبة عنا كالملائكة والشياطين مما كان الجهل بحقيقتها هو سبب عبادتها والقول بربوبيتها ؟ ولاشك أن الجواب عن هذا مما لايختلف فيه عاقل ، فلا خير فى تفرق المعبودات التى لاتستطيع ضُرًّا فى الأرض والسموات .

ثم بين لهما أن مايعبدونه ويسمونه آلهة إنما هى جَعْلٌ منهم ، وتسمية من تلقاء أنفسهم ، تلقاها خلف عن سلف . ليس لها مستند من العقل ولاالوحى السماوى فقال :

(ماتعبدون من دونه إلاأسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ماأنزل الله بها من سلطان)

أى ماتعبدون من دون الواحد القهار إلاأسماء لمسميات وضعتموها أنتم وآباؤكم من قبلكم ونحلتموها صفات الربوبية وأعمالها ، وماهى بأرباب تَخْلق وترزُق ، وتضر وتنفع ، ماأنزل الله حجة وبرهانا على أحد من رسله بتسميتها أربابا ، حتى يقال إنكم تتبعونها تعبدا له وحده وطاعة لرسله .

والخلاصة — إنها تسمية لادليل عليها من نقل سماوى فتكونَ أصلا من أصول الإيمان ، ولادليل عليها من عقل فتكونَ من نِتاج الحجة والبرهان .

(إن الحكم إلا لله) أى ماالحكم الحق فى الربوبية والعبادة إلا لله وحده يوحيه لمن اصطفاه من رسله ولايمكن بشرا أن يحكم فيه بهواه ورأيه ، ولا بعقله واستدلاله ، ولاباجتهاده واستحسانه ، وهذه قاعدة اتفقت عليها كل الأديان ، دون اختلاف فى الأمكنة والأزمان .

ثم بين ماحكم به الله فقال :

(أمر ألا تعبدوا إلا إياه) أى أمر ألاتعبدوا غيره ولاتَدْعوا سواه ، فله وحده

اركعوا واسجدوا ، وإليه وحده توجهوا حنفاء غير مشركين به شيئا من ملَك من الملائكة ولا ملِك من الملوك الحاكمين ، ولا شمس ولا قمر ولا نجم ولا شجر ، ولا حيوان كالعجل أبيس لدى المصريين .

فالمؤمن الصادق الإيمان لا يَذِل ولا يخْزَى لأحد غير الله مما خلق ، بدعاء ولا استغاثة ولا طلب فرج من ضيق ، لإيمانه بأنه هو الرب المدبر لكل شيء ، وأن كل ماسواه فهو خاضع لسلطانه ، ولا يملك لنفسه ولا لغيره غير ماأعطاه من القُوَى ، فإليه وحده الملجأ فى كل مايعجز عنه الإنسان أو يجهله من الأسباب ، وإليه المصير فى الجزاء على الأعمال يوم يقوم الحساب .

(ذلك الدين القيم) أى إن تخصيصه بالعبادة هو الدين الحق الذى لا عِوَج فيه ، والذى دعا إليه جميع الرسل ، ودلَّت عليه براهين العقل والنقل .

(ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أن ذلك هو الدين الحق الذى لا اعوجاج فيه ، لا ماساروا عليه تبعا لآبائهم الوثنيين من الاعتقاد بأرباب متفرقين .

وقد خَفِيتْ هذه الحقيقة على كثير ممن يدعون اتباع القرآن ، فتراهم يتوجهون إلى غير الله من الأولياء والصلحاء إذا مسهم الضر ، ويدعونهم خاشعين متذللين ، ويسمونهم شفعاء ووسائل عندالله ، وماهذا إلا مثل فِعْل من قبلهم من المشركين ، فليس لهم من صفات الربوبية أدنى حظ ، ولا من صفات الألوهية أقل نصيب .

وبعد أن بين لهما الحق فى مسألة التوحيد وعبادة الله وحده شرع فى إنبائهما عما استنبآه عنه فقال :

يَا صَاحِبَيَ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ ، قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١)

وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِى عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِى السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (٤٢)

تأويل يوسف عليه السلام رؤيا صاحبى السجن ووصيته للناجى منهما

الايضاح

(ياصاحبى السجن أما أحدكما) وهو الساقى الذى رأى أنه يعصر خمرا ، ولم يعيِّنْه ثقة بدلالة الحال ، ورعاية لحسن الصحبة .

(فيسقى ربه خمرا) أى فيسقى سيده ومالك رقبته . وقد روى أن يوسف قال له فى تعبير رؤياه : ما أحسن ما رأيت ، أما الكرمة فهى الملك وحسنها حسن حالك عنده ، وأما الأغصان الثلاثة فثلاثة أيام تمضى فى السجن ثم تخرج وتعود إلى عملك .

(وأما الآخر) وهو الذى رأى أنه يحمل خبزا تأكل الطير منه .

(فيصلب فتأكل الطير من رأسه) أى الطير الكواسر كالحِدَأة والرَّخَمة ونحوها روى أنه عليه السلام قال له : ما رأيت من السلال الثلاث ، فثلاثة أيام تمر ثم تُخْرَج فتُصْلَب .

(قضى الأمر الذى فيه تستفتيان) الاستفتاء فى اللغة : السؤال عن المشكل المجهول والفتوى جوابه : أى إن الأمر الذى يهمكما و يشكل عليكما وتستفتيانى فيه قد بُتَّ فيه وانتهى حكمه .

وهذه الفتوى من يوسف عليه السلام زائدة على تعبير رؤياهما داخلة فى باب المكاشفة والإنباء عن الغيب ، قالها لهما ليثقا بقوله ، ويعلما أنه إنما قالها بوحى من ربه ، وأن الملك قد حكم فى أمرهما بما قاله .

(وقال للذى ظن أنه ناج منهما) وهو الذى أول له رؤياه بأنه يسقى ربه خمرا ، وتأويلها يدل على نجاته دلالة ظنية لا قطعية ، وقد يكون هذا بناء على وحى فيكون

الظن بمعنى اليقين وهو كثير فى القرآن الكريم كما قال : « الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ » وقال : « إِنِّى ظَنَنْتُ أَنِّى مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ » .

(اذكرنى عند ربك) أى اذكرنى لدى سيدك الملك بما رأيت منى وما سمعت وعلمت من أمرى ، علّه ينصفنى ممن ظلمنى ويخرجنى من ضائقة السجن ، ومما هو جدير أن يذكره به دعوته إياهم إلى التوحيد وتأويله للرؤيا ، وإنباؤهم بكل ما يأتيهم من طعام وشراب وغيرهما قبل إتيانه وفتياه التى أفتى بها .

(فأنساه الشيطان ذكر ربه) أى فأنسى الشيطان ذلك الساقى الناجى تذكر إخبار ربه أى أن يذكر يوسف للملك .

(فلبث فى السجن بضع سنين) منسيا مظلوما ، والبضع من ثلاث إلى تسع ، وأكثر ما يطلق على السبع وعليه الأكثرون فى مدة سجن يوسف .

وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّى أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُؤْيَاىَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣) قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ (٤٤) وَقَالَ الَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّى أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا ، فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِى سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِى مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا

تُحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِى مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩)

تفسير المفردات

السمان : واحدها سمين وسمينة ، والعجاف : واحدها عجفاء أى هزيلة ضعيفة ، والسنابل : واحدها سنبلة وهى مايكون فيها الحب ، واليابس من السنبل : ما آن حصاده ، وعبَرْت الرؤيا وعبّرتها (بالتخفيف والتشديد) فسرتها ببيان المعنى الحقيقى المراد من المعنى المثالى كمن يعْبُر النهر بالانتقال من ضفّة إلى أخرى ، والأضغاث : واحدها ضِغْث وهو الحُزْمة من النبات ، والأحلام واحده حلم (بضمتين وبالتسكين للتخفيف) : مايرى فى النوم ، وهو قد يكون واضح المعنى كالأفكار التى تكون فى اليقظة ، وقد يكون مهوّشا مضطربا فهو يُشبَّه بالتضاغيث كأنه مؤلف من حِزَم مختلفة من العيدان والحشائش التى لاتناسب بينها ، وادكر : تذكر (أصله اذتكر) ، والدأب : استمرار الشىء على حال واحدة يقولون هو دائب بفعل كذا إذا استمر فى فعله ، فذروه : أى اتركوه وادخروه . والشداد الصعاب التى تشتد على الناس . وتحصنون أى تُحْرِزون وتدخرون للبذر ، وأغاثه : أعانه ونجاه ، وغوّث الرجل : قال : واغوثاه ، واستغاث ربه : استنصره وسأله الغوث ، ويعصرون : أى مامن شأنه أن يُعْصَر كالزيت من الزيتون والشيرج من السمسم ، والأشربة من القصب والنخيل والعنب .

المعنى الجملى

رؤيا ملك مصر وتأويل يوسف عليه السلام لها

ذكر المؤرخون أن ملك مصر فى عهد يوسف كان من ملوك العرب الذين يسمون بالرعاة (الهكسوس) وأنه قد رأى رؤيا عجز الكهنة والعلماء ورجال الدولة عن تأويلها ،

وقالوا أضغاث أحلام ، وكان من هذا أن لجئوا إلى يوسف فى تأويل الرؤيا ، وبه تم اتصاله بالملك وتعيينه وزيرا له .

الايضاح

(وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات) أى إنى رأيت فيما يرى النائم رؤيا جلية كأنى أراها الآن ، سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس وسبع بقرات عجاف فابتلعت العجاف السمان ، ورأيت سبع سنبلات خضر قد انعقد حَبّها ، وسبعا أخر يابسات قد استحصدت وأدركت ، فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها فجمع الكهنة والعلماء وقال:

(يأيها الملأ أفتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون) أى عبّروها لى و بيّنوا حكمها وماتئول إليه ، إن كنتم تعبرون الرؤى وتبينون المعنى الحقيقى المراد من المعنى المثالى ، فيكون حالكم حال من يعبر النهر من ضفة إلى أخرى .

(قالوا أضغاث أحلام ومانحن بتأويل الأحلام بعالمين) أى قالوا هذه رؤيا من نوع أضغاث الأحلام : أى الأحلام المختلطة من خواطر وأخيلة يتصورها الدماغ فى النوم فلا تومىء إلى معنى معيّن مقصود ، ومانحن بأولى علم بتأويل مثل هذه الأحلام المضطربة ، بل نحن نعلم غيرها من الأحلام المفهومة المعقولة .

وقد يكون مرادهم نفى العلم بجنس الأحلام لأنها مما لايعلم أو مما لايكون له معنى تدل عليه تلك الصور المتخيلة فى النوم كما هو رأى الماديين الآن .

وقد كان حديث الملك فى رؤياه مع كهنته وعلمائه ورجال دولته مذكرا للذى نجا من الفتيين بيوسف وحسن تعبيره للرؤى بعد أن مضى على ذلك ردَح من الزمان كما يشير إلى هذا مابعده :

(وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون) أى إنَّ عجز الملأ كان فرصة سانحة للذى نجا من الفتيين أن يخبر الملك بأن فى الحبس رجلا صالحا

عالما كثير الطاعة ـ خبيرا بتأويل الرؤى ، فإن أنت أذنت لى مضيت إليه وجئتك بالجواب (وكان ذلك الفتى تذكر بعد مدة من الزمن وصية يوسف له بأن يذكره عند سيده الملك فأنساه الشيطان ذلك) فأرسلوه إليه فجاءه فاستفتاه فيما عجزوا عنه وقال :

(يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون) أى يايوسف البالغ غاية الكمال بصدقك فى أقوالك وأفعالك وتأويل الأحاديث وتعبير الأحلام ، أفتنا فى ذلك المنام الذى رآه الملك ، وإنى لأرجو أن يحقق الله أملك بالخروج من السجن وانتفاع الملك وملئه بفضلك وعلمك ،

(قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما تأكلون) أى قال يوسف للملك وملئه مبينا لهم مايجب عليهم أن يعملوه لتلافى ماتدل عليه الرؤيا من الخطر على البلاد وأهلها قبل وقوع تأويلها ، من زراعة القمح سبع سنين متوالية بلا انقطاع ثم بادخار مايحصد منه فى كل زرعة فى سنابله على طريق تحفظه من السوس بتسريب الرطوبة إليه حتى يكون القمح لغذاء الناس والتبن للدواب حين الحاجة إليه ، إلا قليلا من ذلك تأكلونه فى كل سنة مع الاقتصاد والاكتفاء بما يسد الحاجة ويكفى دفع المخمصة ، وهذه السنون السبع هى تأويل البقرات السبع السمان . أما السنبلات الخضر فعلى حقيقتها فى كون كل سنبلة تأويلا لزرع سنة .

(ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ماقدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون) أى ثم تأتى بعد ذلك سبع سنين كلهن جدب وقحط ، يأكل أهلها كل ما ادخرتم فى تلك السنين لأجلهم ، إلا قليلا مما تخزنون وتدخرون للبذر ، ونسبة الأكل إلى السنين هو ماجرت به عادتهم فيقولون أكلت هذه السنة كل شىء ولم تبق لنا خفا ولا حافرا ولاسَبَدا ولا لَبَدا : أى لاشعرا ولا صوفا .

فهذا تأويل البقرات السبع العجاف وأكلهن للسبع السمان ، وللسنبلات اليابسات.

(ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون) أى ثم يعقبهم بعد تلك الشدائد عام فيه يغاث الناس : أى يغيثهم الله من تلك الشدة أتم إغاثة ويعينهم بجميع أنواع المعونة ، فتُغِلُّ البلاد وتكثر المحصولات بجميع أنواعها ويعصرون مامن شأنه أن يعصر من العنب والقصب والزيتون والسمن ونحوها من الفواكه .

وخلاصة ذلك — إن العام يكون عام خصب وإقبال ، ويكون للناس فيه مايبغون من النعمة والإتراف ، والإنباء بهذا العام زائد على تأويل الرؤيا ولم يعرفه يوسف على التخصيص والتفصيل إلا بوحى من الله عز وجل .

وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ، فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ، إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ؟ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ، قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ : الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢)

طلب الملك ليوسف وتريثه فى الإجابة

حتى يحقق حادثة النسوة

بعد أن رجع الرسول إلى الملك وملئه وأبلغهم ماقاله يوسف عليه السلام ، فهموا منه سعة علمه وحسن تدبيره لدى ذلك الخطب الجلل الذى سيحل بالبلاد ، فطلب الملك رؤيته ليتحقق بنفسه صدق مافهمه من كلامه ، إذ ليس الخبر كالخُبْر وليس السماع كالمشاهدة ، وذلك هو الرأى والحزم .

الإيضاح

(وقال الملك ائتونى به) كى أستمع كلامه وأعرف درجة عقله وأعلم تفضيل رأيه .

(فلما جاءه الرسول) و بلّغه أمر الملك وطلب إليه إنفاذه .

(قال ارجع إلى ربك فاسأله مابال النسوة اللاتى قطعن أيديهن) البال : هو الأمر الذى يبحث عنه و يهتم به : أى ارجع إلى سيدك قبل شخوصى إليه ومثولى بين يديه ، وسله عن حال النسوة اللاتى قطّعن أيديهن ليعرف حقيقة أمره ، إذ لاأود أن آتيه وأنامتهم بقضية عوقبت من أجلها بالسجن وقد طال مكثى فيه دون تعرف الحقيقة ولا البحث فى صميم التهمة .

(إن ربى بكيدهن عليم) أى إنه تعالى هو العالم بخفيّات الأمور ، وهو الذى صرف عنى كيدهن فلم يمسسنى منه سوء .

وقد دل هذا التريث والتمهل من يوسف عليه السلام عن إجابة طلب الملك له حتى تحقق براءته على جملة أمور :

(١) جميل صبره وحسن أناته ، ولا عجب فمثله ممن لقى الشدائد جدير به أن يكون صبوراحليما ، ولاسيما ممن ورث النبوة كابرا عن كابر ، وقد ورد فى الصحيحين مرفوعا « ولو لبثت فى السجن مالبث يوسف لأجبت الداعى » ، وفى رواية أحمد « لو كنت أنا لأسرعت الإجابة وما ابتغيت العذر » .

(٢) عزة نفسه وصون كرامته ، إذ لم يرض أن تكون التهمة بالباطل عالقة به ، فطلب إظهار براءته وعفته عن أن يُزَنَّ بريبة أو تحوم حول اسمه شائبة السوء .

(٣) إنه عَفّ عن اتهام النسوة بالسوء والتصريح بالطعن عليهن حتى يتحقق الملك بنفسه حين مايسألهن عن السبب فى تقطيع الأيدى و يعلم ذلك منهن حين الإجابة .

(٤) إنه لم يذكر سيدته معهن وهى السبب فى تلك الفتنة الشعواء وفاء لزوجها ورحمة بها ، و إنما اتهمها أولا دفاعا عن نفسه حين وقف موقف التهمة لدى سيدها و بعد أن طعنت فيه .

(قال ماخطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه) الخطب الشأن العظيم الذى يقع فيه التخاطب إما لغرابته و إما لإنكاره ، ومنه قوله تعالى حكاية عن إبراهيم : « قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ » وقوم موسى : « فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِي » أى إن الرسول بعد أن أبلغ الملك قول يوسف : إنه لايخْرج من السجن استجابة لدعوته حتى يحقق قصة النسوة ـ جمعهن وسألهن : ماخطبكن الذى حملكن على مراودته عن نفسه: هل كان عن ميل منه إليكن ، وهل رأيتن منه مواتاة واستجابة بعدها ، وماذا كان السبب فى إلقائه فى السجن مع المجرمين .

(قلن حاش لله ماعلمنا عليه من سوء) أى معاذ الله . ماعلمنا عليه سوءا يشينه و يسوءه لاقليلا ولا كثيرا .

(قالت امرأة العزيز : الآن حصحص الحق) حصحص : ظهر بعد أن كان خفيا أى إن الحق فى هذه القضية كان فى رأى من بلغهم ـ موزَّع التبعة بيننا معشر النسوة و بين يوسف ، لكل مناحصة بقدر ماعرض فيها من شبهة ، والآن قد ظهر الحق فى جانب واحد لاخفاء فيه ، وهن قد شهدن بما علمن شهادة نفى ، وهأنذا أشهد على نفسى شهادة إيجاب .

(أنا راودته عن نفسه) لاأنه راودنى ، بل استعصم وأعرض عنى .

(و إنه لمن الصادقين) فى قوله حين افتريت عليه : هى راودتنى عن نفسى ، والذى دعاها إلى هذا الاعتراف مكافأة يوسف على مافعله من رعاية حقها وتعظيم جانبها و إخفاء أمرها حيث قال : (مابال النسوة اللاتى قطعن أيديهن) ولم يَعْرِض لشأنها .

وفى هذا الاعتراف شهادة مريحة من امرأة العزيز ببراءة يوسف من كل الذنوب ، وطهارته من كل العيوب .

(ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب) أى ذلك الاعتراف منى بالحق له ، والشهادة بالصدق الذى علمته منه ، ليعلم أنى لم أخنه بالغيب عنه منذ سجن إلى الآن ، فلم أفل

من أمانته ، أو أطعن فى شرفه وعفته ، بل صرحت لأولئك النسوة بأنى راودته عن نفسه فاستعصم ، وهأنذا أقر بهذا أمام الملك ورجال دولته وهو غائب عنا .

(وأن الله لا يهدى كيد الخائنين) أى لاينفذه بل يبطله وتكون عاقبته الفضيحة والنكال ، ولقد كدنا له فصرف ربه عنه كيدنا ، وسجنّاه فبرأه الله وفضح مكرنا ، حتى شهدنا على أنفسنا فى مثل هذا الحفل الرهيب والمقام المنيف ببراءته من كل العيوب، وسلامته من كل سوء .

وعلى الجملة فالتحقيق أسفر عن أن يوسف كان مثل الكمال الإنسانى فى عفته ونزاهته لم يمسسه سوء من فتنة أولئك النسوة ، وأن امرأة العزيز أقرّت فى خاتمة المطاف بذنبها فى مجلس الملك إيثارا للحق وإثباتا لبراءة يوسف عليه السلام .

نسألك سبحانك الهداية والتوفيق ، وأن تسدد خطانا إلى أقوم طريق ، بمنك وكرمك وجزيل معونتك ، إنك نعم المولى ونعم النصير .

وصل ربنا على محمد وآله ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وقد كان الفراغ من مسوّدة هذا الجزء بمدينة حلوان من أرباض القاهرة لثمان بقين من صفر من سنة ثلاث وستين وثلثمائة وألف هجريه .